التسامح الديني في الفكر العقدي الأشعري

د. عثمان العسري

المغرب

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإن الإسلام دين رحمة وعدل واعتدال، وقد أقام منظومته العقدية والتشريعية والسلوكية على القيم والمقاصد التي تحفظ للناس دينهم وأنفسهم وكرامتهم، ومن أبرزها قيمة التسامح التي تمثل مظهرا من مظاهر سعة دين الإسلام ورحمته بالناس أجمعين، إذ تقوم على العدل، واحترام كرامة الإنسان، والتعامل مع المخالف وفق الضوابط الشرعية.

إلا أن التسامح لم يسلم في العصر الحديث من تعدد التأويلات، واختلاف المقاربات؛ فقد سعى بعض الباحثين إلى توظيفه في سياقه الشرعي بما ينسجم مع ثوابت الدين ومقاصده، عمد آخرون إلى تضمينه دلالات مستوردة من سياقات وثقافات مغايرة، وجعلوه مدخلا إلى تهميش الدين في المجال العام، أو الدعوة إلى إلغاء الخصوصية الدينية والثقافية للمجتمع الإسلامي، بل وتبرير ممارسات وقيم لا تتلاءم مع المرجعية الإسلامية، تحت لواء التسامح الديني.

وقد ترتب على هذا الاختلاف في فهم التسامح نوع من الالتباس في الخطاب الديني والفكري، زاد من حدته بروز اتجاهات أخرى اتصفت بالتطرف والغلو والتشدد، وتوسعت في إطلاق أحكام التكفير، دون مراعاة للضوابط الشرعية، ولا إلى الشروط العملية، مما أسهم في اتشار الفرقة، واستباحة الدماء، وانتهاك الأعراض، وتشويه صورة الإسلام بوصفه دينا قيما، يقوم على الرحمة والوسطية والاعتدال.

ومن هنا تبرز أهمية الرجوع إلى التراث العقدي الإسلامي، واستحضار النماذج العلمية التي أرست المنهج المتوازن في التعامل مع المخالف، زفي مقدمته المدرسة الأشعرية، التي أسست رؤيتها في التكفير على الاحتياط، والتفريق بين الخطأ والكفر، وحسن الظن بالناس، وحمل الكلام على أحسن محمل.

وانطلاقا من ذلك فإن هذا البحث يسعى إلى بيان مفهوم التسامح الديني في المجال العقدي، والكشف عن أبرز مظاهره في الفكر العقدي الأشعري، مع إبراز الأسس العلمية والمنهجية التي اعتمدها العلماء الأشاعرة في تعاملهم مع المخالف، وبيان القيمة العملية والعلمية لهذا المنهج في مواجهة التحديات الدينية والفكرية التي يشهدها الواقع المعاصر.

وقد واخترت قضية التكفير نموذجا لهذه الدراسة، لكونها تمثل المجال الأكثر تجليا لموقف الأشاعرة من التسامح العقدي، حيث تبرز من خلالها أصولهم في الاحتياط عند إطلاق الأحكام، والتفريق بين الخطأ والكفر، ومراعة الشروط والموانع، بما يكشف عن البعد المقاصدي والمنهجي لهذا الفكر.

وينطلق البحث من إشكالية مركزية مفادها: إلى أي حد أسهم الفكر العقدي الأِشعري في ترسيخ مبدأ التسامح الديني، وما الأسس التي قام عليها؟

وتتجلى أهمية البحث في إبراز البعد الإنساني والمقاصدي للعقيدة الإسلامية، وبيان إسهام المدرسة الأشعرية في ترسيخ قيم الوسطية والاعتدال، والكشف عن قدرتها في تقديم منهج رصين لمواجهة الفكر المتطرف، وتعزيز الأمر الروحي والفكري والاجتماعي، وترشيد التدين.

وقد وظفت في إنجاز هذا البحث المنهج الاستقرائي في تتبع النصوص وأقوال العلماء، والمنهج التحليلي في دراسة مفاهيم البحث، مع الاعتماد على المنهج المقارن عند الحاجة.

واقتضت طبيعة البحث إلى مقدمة ومبحثين؛ تناولت في المقدمة أهمية الموضوع، وبينت إشكاليته وأهدافه، والمنهج المعتمد في دراسته وخطته. أم المبحث الأول فقد خصص لبيان مفاهيم البحث. بينما خصص المبحث الثاني لبيان مظاهر التسامح الديني عند الأشاعرة. ثم الخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي للتسامح الديني

يقوم هذا المبحث على ضبط المفاهيم الأساس للبحث، وذلك من خلال بيان مفهوم التسامح، ومفهوم الدين في الفكر الإسلامي، مع الإشارة إلى أبرز المعاني والتصورات الفلسفية الغربية لهذين المفهومين، وصولا إلى التسامح الديني الذي يمثل النواة النظري لهذه الدراسة.

المطلب الأول: مفهوم التسامح

التسامح مأخوذ من فعل سمح، ويدل في اللغة على السهولة، والسلاسة، والجود، والإسراع، قال ابن فارس: "السين والميم والحاء أصل يدل على سلاسة وسهولة، يقال سمح له بالشيء. ورجل سمح، أي جواد، وقوم سماح ومساميح. ويقال سمح في سيره، إذا أسرع"[1]، وجاء في أساس البلاغة أن هذا الأصل (سمح) يدل على اللين بعد الصعوبة، قال الزمخشري: "وأسمحت قرونته؛ إذا تبعته نفسه وأطاعته. وسمح البعير: ذل بعد الصعوبة"[2]، ويقال: عليك بالحق فإن في الحق مسمحاً؛ أي متسعاً ومندوحة عن الباطل[3].

وبناء على هذه المعاني اللغوية يتبين أن التسامح في المعاني اللغوية يدل على الجود والكرم في المعاملة، والسهولة والتجاوز عن الزلات، كما يدل أيضا على الإسراع.

ويمكن الجمع بين هذه المعاني فنقول: إن الإنسان إذا أذنب أو أثم في حق الله تعالى أو في حق غيره، أسرع إلى طلب العفو والصفح ممن أخطأ في حقه، بالعبارات اللينة الطيبة، حتى يقابله المسامح بسماحة نفسه وجوده وكرمه، ويتجاوز عن زلاته التي حصلت منه، ويتعامل معه برفق ورحمة، ويترك الحق والغل.

أما في الاصطلاح فقد عرف الجرجاني التسامح بأنه "ألا يعلم الغرض من الكلام، ويحتاج في فهمه إلى تقدير لفظ آخر"[4]، وقد يطلق على "استعمال اللفظ في غير حقيقة بلا قصد علاقة مقبولة، ولا نصب قرينة دالة عليه، اعتمادا على ظهور فهم المراد في ذلك المقام"[5].

فالتسامح على هذا يرتبط بالتأويل والظن الحسن بالآخرين، والتماس الأعذار لهم، وهو من مظاهر التسامح الفكري واللغوي، فعندما يكون في الكلام غموض، واحتمالات لأكثر من معنى، فإن التسامح يبدو في عدم تأويل الكلام تأويلا فاسدا، وعدم التسرع في الظنون السيئة بما قاله، وهذا ما أكده بعض الباحثين في كتاب نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إذ قالوا: "التّسامح مع الغير في المعاملات المختلفة ويكون ذلك بتيسير الأمور والملاينة فيها الّتي تتجلّى في التّيسير وعدم القهر، وسماحة المسلمين الّتي تبدو في تعاملاتهم المختلفة سواء مع بعضهم أو مع غيرهم من أصحاب الدّيانات الأخرى"[6].

وعليه فإن التسامح يعني حسن المعاملة مع الآخرين بلطف ورأفة، وحسن الظن بهم، وعدم تأويل الكلام تأويلا فاسدا.

---

1 معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر سنة 1399هـ 1979م، مادة سمح.

2 أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت 538هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى سنة 1419هـ/1998م، مادة سمح.

3 المصدر السابق، مادة سمح.

4 التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى سنة 1403هـ/1983م، ص 57.

5 جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ت ق 12هـ)، تعريب إلى الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية لبنان بيروت، الطبعة الأولى سنة 1421هـ/2000م، ج 1، ص 199.

6 نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، عدد من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد، دار الوسيلة للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الرابعة بدون سنة، ج 6، ص 2288.

المطلب الثاني: مفهوم الدين

أولا: الدين في اللغة

الدين مشتق من الفعل الثلاثي دان، يقال: دان له يدين دينا؛ أي أطاعه، ومنه: الدين، والجمع الأديان، ويقال: دان بكذا ديانة فهو دَيِّنٌ، وتدين به فهو متدين، ودان الله العباد يدينهم يوم القيامة أي يجزيهم [7].

وترجع مادته إلى أصل واحد وهو الانقياد، قال ابن فارس: الدال والياء والنون الذي يدل على أصل واحد، وإليه ترجع فروعه كلها، وهو جنس من الانقياد، والذل؛ فالدِّين: بكسر الدال الطاعة، يقال دان له يدين دينا، إذا انقاد وطاع، وقوم دِينٌ؛ أي مطيعون منقادون[8]، قال تعالى: ﴿ ۀ ہ ہ ہ ھ ﴾[9]؛ يعني ما كان ليوسف عليه السلام ليأخذ أخاه في حكم ملك مصر وقضائه وطاعته منهم[10]، ودان الله العباد يدينهم يوم القيامة أي يجزيهم، وهو ديان العباد، ودانوا لفلان؛ أطاعوه[11]، ودان نفسه أذلها، قال صلى الله عليه وسلم: الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ[12]، قال القاسم بن سلام[13]: دان نفسه إذا أذلها وحكمها وضبطها[14]، ودان له يدين دينا؛ أي أطاعه، ومنه الدين، والجمع الأديان، ويقال: دان بكذا ديانة، فهو دين، وتدين به فهو متدين، وديَّنه تديينا، وكله إلى دينه[15].

فمعاني "الدِّين" في اللغة ترجع إلى الذل، والانقياد، والطاعة، والغلبة، والاستيلاء، والحكم، والقهر، والسيرة، والعادة، والشأن[16].

وبناء على هذا يتبين أن بين اشتقاقات كلمة الدين ووجوه تصاريفها تقاربا شديدا في المعنى، وذلك أن لفظ "الدين" إما أن يكون:

- متعديا بنفسه؛ نحو دانه دينا، فيكون معناه: ملكه وحكمه وحاسبه وجازاه...
- أو متعديا بالباء؛ نحو دان بكذا ديانة، فهو دين، وتدين به فهو متدين، وديَّنه تديينا؛ أي اتخذه مذهبا، فالدين على هذا يكون بمعنى الطريقة التي يؤمن بها المرء.
- أو متعديا باللام؛ نحو دان له: أي أطاعه وخضع له، وكلمة "الدين لله" تكون بمعنى الطاعة والخضوع، وتكون بمعنى الحكم لله.

---

7 مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية الدار النموذجية، بيروت صيدا، الطبعة الخامسة سنة 1420هـ / 1999م، مادة د ي ن.

8 مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة دين.

9 سورة يوسف، الآية 76.

10 جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى سنة 1422 هـ2001م، ج 13، ص 262.

11 كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهدي، باب الدال والنون.

12 أخرجه الإمام البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز، باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستعمله من قصر.

13 هو أبو عبيد القاسم بن سلام الخزاعي، كان من العلماء بالكتاب والسنة، والناسخ والمنسوخ، وبغريب الحديث، وإعراب القرآن، توفي أبو عبيد في المحرم سنة أربع وعشرين ومئتين بمكة، في دور جعفر بن محمد، وعاش ثلاثا وسبعين سنة. انظر: طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (المتوفى: 379هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، بدون سنة، دار المعارف بدون سنة، ص 199.

14 غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 224هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الدكن، الطبعة الأولى سنة 1384 هـ -1964 م، ج 3، ص 135.

15 مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، مادة د ي ن.

16 تاج العروس، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية بدون طبعة وسنة الطبع، مادة دهمن

وعليه فإن لفظ الدين في الفكر الإسلامي يشير إلى علاقة بين طرفين، أحدهما يعظم الآخر، وجامع بينهما، فالطرفين هما الحاكم والخاضع، والجامع بينهما تلك الشرائع والتكليفات التي تنظم تلك العلاقات.

أما في المعاجم الفلسفية فقد اختلفوا في أصل اشتقاقه، فبحسب ما جاء في موسوعة لالاند أن الفلاسفة القدماء يستخرجون لفظة الدين (RELIGIO) من (RELIGARE)، ويرون فيها فكرة الربط؛ سواء كان الربط واجبا تجاه بعض الممارسات، أو جامعا بين الناس، أو بين البشر والآلهة، ويرى الفيلسوف شيشرون أن الدين مشتق من (RELIRE)؛ بمعنى إعادة القراءة للدين من أجل تجديد الرؤية بدقة[17].

وذهب لالاند إلى أن لفظة الدين تعود إلى معنى "اعتنى؛ أجل أو احترم شيئا ما"، كما ذكر أن (RELIGIO) في اللاتينية تعني: الإحساس المصحوب بخوف وتأنيب ضمير، بواجب ما تجاه الآلهة[18].

وجاء في بعض المعاجم الفلسفية أن الدين في اللغة المراد به: العادة، والحال، والسيرة، والسياسة، والرأي، والحكم، والطاعة، والجزاء، ومنه: ملك يوم الدين، وكما تدين تدان[19]، وهي معاني لا شك مجموعة من عدة تعريفات لمشارب مختلفة.

ثانيا: دلالة الدين في الاصطلاح

إن المعاني والاشتقاقات اللغوية التي ذكرت للدين لا تبين حقيقة هذه المادة في عرف الناس واصطلاحهم، فليس كل خضوع وانقياد يسمى دينا، فهناك بعض الخصائص والمميزات التي ينماز بها الدين عما سواه.

ولا شك أن تلك الخصائص والمميزات لا يتم تحديدها، إلا إذا عرضنا تعريفات الدين التي صاغها العلماء المسلمون والفلاسفة الغربيون، الاستخلاص عناصر الاتفاق والتباين بينها.

1. الدين في اصطلاح العلماء المسلمين

لقد وردت تعريفات كثيرة للدين عند المفسرين وأصحاب المعاجم وغيرهم، وهي مع اختلاف ألفاظها، متقاربة في مضمونها، ومن أشهرها تعريف الرازي حيث يقول: "الدين وضع إلهي سائق لأولي الألباب إلى الخيرات باختيارهم المحمود"[20]، وعرفه الجرجاني بقوله: "الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم"[21]، وقيل: هو "عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات، قلبيا كان أو قالبيا، كالاعتقاد والعلم والصلاة"[22]، وقيل: هو "قانون سماوي سائق لذوي العقول إلى الخيرات بالذات، كالأحكام الشرعية النازلة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم"[23].

---

[17] موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، تعريب خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه: أحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت باريس، الطبعة الثانية سنة 2001م، ص 1203.

[18] موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، ص 1204.

[19] المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني بيروت، سنة 1982م، ص 572.

[20] مفاتيح الغيب، الرازي، ج 29، ص 529.

[21] التعريفات، الجرجاني، ص 105.

[22] الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، بدون سنة النشر، ص 443.

[23] دستور العلماء جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق 12هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ – 2000م، ج 2، ص 84.

أما الإمام الحرالي[24] فقد تناول الدين من ناحية ذوقية عرفانية، فقال: "دين الله المرضي الذي لا لبس فيه، ولا حجاب عليه، ولا عوج له، هو إطلاعه تعالى عبده على قيوميته الظاهرة بكل باد وفي كل باد، وعلى كل باد، وأظهر من كل باد، وعظمته الخفية التي لا يشير إليها اسم ولا يحوزها رسم، وهي مداد كل مداد"[25].

وبناء على هذه التعاريف يتبين أنه لا يوجد فرق جوهري بين عناصر الدين التي وضعوها، فهي على اختلاف ألفاظها، تشترك في جملة من العناصر المكونة للدين في تصور العلماء المسلمين وهي الموضوع بوضع إلهي، المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام، لذوي العقول، لتحقيق الخير، ودفع المضرة، فقولهم:

ومن خلال هذه العناصر يتبين أن العلماء المسلمين ينظرون إلى الدين باعتباره وحيا إلهيا منزلا على الرسول صلى الله عليه وسلم، لهداية الإنسان إلى ما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة، ومن ثم فإنهم يطلقون الدين على الإسلام الذي جاء به سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولا يشمل كل الأديان التي ينقاد لها الإنسان ويخضع، سواء كانت سماوية محرفة، أو كانت طبيعية، مع الإقرار بأن الرسالات السابقة كانت دينا ووحيا أنزل من عند الله في أصلها، قبل أن يطالها التغيير والتحريف.

2. الدين في اصطلاح الفلاسفة

لقد تعددت تعريفات الفلاسفة الغربيين للدين تبعا لتعدد المناهج والحقول المعرفية التي ينتمون إليها، فقد عرف كانط الدين بأنه: "الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية". وعرفه روبرت سبنسر: بأنه: "الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية والمكانية، هذا العنصر الرئيسي في الدين". وعرفه إميل دوركايم بأنه "مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة أي: المعزولة المحرمة، اعتقادات أعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة"[26].

ونلاحظ أن دوركايم استبعد فكرة الإله، الخالق، اللانهائي[27]؛ الذي لا يحيط به تصور أو إدراك، وقد استدل على ذلك بأنه ثمت أديان متحضرة لم تحقق فيها فكرة الدين، مثل البوذية والجانية؛ الذين لا يعترفون بوجود الإله، والعالم عندهم قديم، وينكرون بصراحة وجود موجود كامل خالد كل الخلود[28].

ولا عجب في أن يبادر بعض مفكري الحداثة والتحرر الديني إلى صوغ أخلاق اقتبسوها من الدين، وألبسوها لباس العقل، ثم صاروا يزعمون أنهم استنبطوها من عنديتهم، إلا أن العقل الذي استخدموه لصياغة ما اقتبسوه من الدين، لا يقين له في نفي مقاصده[29].

أما علماء اللاهوت ومقارنة الأديان فقد ربطوا الدين بالشيء المقدس في تعريفهم له، يقول شلاير ماخر: قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة. ويقول ماكسملر: الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، فهو التطلع إلى

---

[24] هو العلامة المتفنن أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التجيبي الأندلسي، وحرالة: قرية من عمل مرسية، مات سنة سبع وثلاثين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء، ج 16، ص 309.

[25] التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: 1031هـ)، عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1990م، ص 169.

[26] الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص 35/34.

[27] وسواء حذف مبدأ الإله أو الخالق أو اللامتناهي أو لم يحذف في تعريف الدين، فهو لا يشمل كل العناصر التي يتألف منها، بحيث لو كان كل خضوع وانقياد لأي قوة مطلقة يسمى دينا، لكان خضوعنا وانقيادنا للهواء الذي نتنفسه، والغذاء والراحة التي نستسلم لها أولى وأحق بهذا الاسم.

[28] نشاة الدين "النظريات التطورية والمؤلهة"، علي سامي النشار، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، سنة 1368هـ 1949م، ص 24

[29] بؤس الدهرانية النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، طه عبد الرحمن، ص 117.

اللانهائي، وهو حب الله، ويقول ريفيل: الدين هو توجيه الإنسان سلوكه وفقا لشعوره بصلة بين روحه، وروح خفية، يعترف لها بالسلطان عليه، وعلى سائر العالم، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها[30].

وهذه التعاريف لعلماء اللاهوت ومقارنة الأديان قريبة جدا من تعاريف العلماء المسلمين، والفرق بينهما أن المسلمين لا يقررون شيئا في الدين من تلقاء أنفسهم، وإنما واضع الدين (الله سبحانه والرسول صلى الله عليه وسلم) هما اللذان يأمران وينهيان، ويشرعان الشرائع التي تجلب المصالح وتدفع المفاسد، أما الفلاسفة الغربيون فقد أسندوا الدين إلى العقل، لكونه يوافق طبيعة الإنسان من حيث كونه عاقلا، ولأن معرفة الإله يستنبطها الإنسان من قوى طبيعته وحدها، قال روسو: إن أعظم الأفكار عن الألوهية تأتينا بطريق العقل وحده[31]، وشتان بين إدراك وجداني يقتنص جليل القيم ودقيق المعاني من قوى غيبية لا يمكن إدراكها، أو تصورها چڈ ڎ ڏ چ[32]، ولا يقف عند حجاب الظواهر، بل يخرقه طالبا المعاني الروحية الكامنة وراء النص، في حين أن العقل إدراك استدلالي محكوم بالظواهر ومحجوب عن المعاني[33].

فتبين من هذا أن لمعرفة الدين عند الفلاسفة الغربيين مناهج ثلاثة وهي: من حيث النظام، ومن حيث الوظيفة، ومن حيث الجوهر.

المنهج التنظيمي: الذي ينظر إلى الدين على أنه منهج حياة ينظم المجتمعات، ويميزها عن غيرها في العقيدة والعبادة والمعاملات والأخلاق.

المنهج الوظيفي: الذي ينظر إلى الدين من حيث وظيفته الاجتماعية؛ أي أنه منهج حياة يربط الناس في وحدات أو مجموعات اجتماعية.

المنهج الجوهري: الذي ربط الدين بالشيء المقدس[34]. وقد بيَّن لالاند أن الدين في الاصطلاح الفلسفي يتردد بين ثلاث معان.

فالفلاسفة الغربيون قد ذهبوا إلى أن الدين وعي فطري، لا حقيقة غيبية، وهم بهذا يحققون معنى الدين الطبيعي أو التجربة الدينية، إذ الفكر الحداثي يوجب استقلال الإنسان عن كل ذات خارجية، كيف ما كانت، حتى يدرك رشده وهديه[35].

ثم إن الناظر في التعاريف الإسلامية التي حصرت الدين في الإسلام فقط، والتعاريف الفلسفية التي جمعت بين الأديان السماوية، وتتخذ معبودا واحدا، والأديان الطبيعية التي لا تعترف بالإله، يرى أنها لا تشمل كل العناصر التي يجب أن يشملها ليميز بين الخضوع الذي يسمى دينا، وخضوع آخر لا يسمى دينا.

ولعل هذا ما دفع الدكتور محمد عبد الله دراز يعرف الدين تعريفا مغايرا للمسلمين والفلاسفة، يجمع تلك العناصر التي لا يمكن أن يخلو منها أي دين، قال: الدين هو الاعتقاد بوجود ذات غيبية علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي يعاني منها الإنسان،

---

[30] وتوجد تعاريف أخرى للدين، منها: يقول الأب شاتل: الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق، وواجبات الإنسان نحو الله، ونحو الجماعة، ونحو نفسه. ويقول إميل برنوف: الدين هو العبادة، والعبادة هي عمل مزدوج، فهي عمل عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية، وعمل قلبي، أو انعطاف محبة، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة. ويقول جويوه: الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية، والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى، يركزها الإنسان البدائي في الكون. ويقول ميشيل مايير: الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ومع الناس، وفي حق أنفسنا. ويقول سلفان بريسيه: الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية. ويقول سلمون رينالك: الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزًا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا. انظر: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص 35/34.

[31] بؤس الدهرانية، طه عبد الرحمن، ص 37.

[32] سورة الشورى، الآية 11.

[33] بؤس الدهرانية، طه عبد الرحمن، ص 37، بتصرف.

[34] اتجاهات التعددية الدينية والموقف الإسلامي منها، أنيس مالك طه، ص 5.

[35] بؤس الدهرانية، طه عبد الرحمن، ص 72.

اعتقادا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد[36]، هذا من زاوية الحالة النفسية للمتدين، أما من حيث الحقيقة الخارجية فهو: جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العلمية التي ترسم طريق عبادتها[37].

المطلب الثالث: مفهوم التسامح الديني

لقد استعملت الشريعة الإسلامية مفهوم التسامح في معانيه اللغوية التي تدل على الجود والكرم والسعة، يقال: "عليك بالحق فإن في الحق مسمحاً؛ أي متسعاً ومندوحة عن الباطل"[38]، ولم ينقلوه من هذا المعنى إلى حقل الدين، إلا بعد ظهوره في أوروبا في القرن السادس عشر، إثر الحروب الدينية التي عاشتها في ذلك الدهر، فقد شهدت تلك الحقبة طغيانا واضطهادا دينيا من قبل الكنيسة، كان من أبرزها محاكم التفتيش سنة 1123م، ثم في سنة 1252م صدر أمر بابوي شرع فيه حق الاضطهاد[39]، بل إنها قد استعملت مفاهيم أخرى تدل على ما يدل عليه التسامح في أبهى معانيه وأرقى صوره، مثل العفو واليسر والبر والاعتدال والتوسط ورفع الحرج، قال الإمام ابن عاشور في معنى السماحة: "سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط"[40]، وقال أيضا: "السهولة المحمودة فيما يظن الناس التشديد فيه، ومعنى كونها محمودة؛ أنها لا تفضي إلى ضر أو فساد"[41]؛ أي أن التسامح هو الوقوف الوسطي الذي يُنْصَف من خلاله الآخر المخالف، وهذا يشمل التسامح في القول والسلوك والمعاملة.

وهده الألفاظ هي روح الشريعة الإسلامية وأفضل مقاصدها، كما بين ذلك الحق سبحانه في قوله تعالى: (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)[42]، وقوله جل شأنه: (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ)[43]، ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[44]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[45]، أي: كان الدين غالبا. وقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[46]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما»[47]، وعن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله رجلا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى».

وقد نوه بهذا المعنى كثير من العلماء؛ إذ جعلوا أن قوام الإنسان الفاضل الاعتدال، وهو التوسط بين الإفراط والتفريط، والليونة والتشدد؛ لأن هذين الطرفين يدعو إليهما الهوى الذي حذرنا منه الحق سبحانه في القرآن، قال تعالى: ولا تتبع الهوى....، وقال سبحانه: يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم، أفرايت من اتخذ الهه هواه....

فالله سبحانه قد نهى عن تجاوز الحد المعروف بحسب الشرع أو العقل أو العادة، وكذلك اتباع الهوى، لأنهما سبب في سوء فهم الشريعة، والتناحر بين الناس.

---

36 الدين بحوث ممهدة لراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص 52.

37 نفسه، ص 52.

38 أساس البلاغة، الزمخشري، ج 2، ص 472.

39 نقد التسامح الليبرالي، مفتي محمد بن أحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر والتوزيع، السعودية سنة 2010، ص 15.

40 مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، ص 268.

41 المصدر السابق ص 269.

42 سورة البقرة، الآية 185.

43 سورة المائدة، الآية 6.

44 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

45 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

46 أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول.

47 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: يسروا ولا تعسروا.

وعرف جابر عصفور التسامح الديني بأنه "لازمة من لوازم فكر التنوير، وهو الموقف السلوكي أو الفكري الذي لا بد أن يتحلى به الإنسان مقابل من أو ما قد يخالفه، أو يصدمه من آراء أو اجتهادات، أو حتى تصريحات مستفزة أحيانا، يرفضها النسق الفكري الذي ينبني عليه الوعي الديني...، وهو ما تقوم عليه الدولة المدنية من مبدإ حق الاختلاف وحرية التعبير"[48].

وبناء على هذا فإن التسامح الديني يعني احترام خيارات الآخرين في اتباع أي دين، واعتقاد ما يشاؤون، وعدم التضييق عليهم بحجة الدين الصحيح، أو التقدم والتخلف، وهو مبدأ يقتضي قبول وجود ديانات ومعتقدات مختلفة.

وبهذا يكون التسامح الديني يرتبط ارتباطا وثيقا بحرية الدين والمعتقد، إذ جوهر التسامح؛ الحرية، وعدم التسلط والإكراه والتعصب، وعدم حمل الآخرين قسرا على اتباع دين معين، واعتقاد عقيدة واحدة.

المبحث الثاني: مظاهر التسامح الديني عند الأشاعرة

إن كثيرا من مقالات الفرق الإسلامية لم تستند إلى ضوابط منهجية محكمة، أو إلى أسس علمية واضحة، مما يجعل الدارس للفكر الكلامي يتصادم مع تيارات فكرية تتعالى عن فهم النصوص الشرعية، وبمقتضى هذا التعالي يفرضه على الناس، بل إن هناك من يذهب تطرفا إلى أن تأويله نصوص دين الإسلام وفهمه لا يدانيه إلا الإسلام نفسه، وبناء عليه يصبح فكر هؤلاء في منزلة الإيمان، ومخالفته وعدم الإقرار به كفر، بسبب التأويل والفهم القاصر للنصوص الشرعية، مما نتج عنه نشر الفتنة بين الناس باسم الدين، والدين منه براء، مثل فرقة الأزارقة الذين اختاروا عقيدة التكفير سلاحا لهم في وجه كل مخالف لهم في الرأي، والقتل شريعة، بل إنهم استباحوا قتل أطفال المخالفين لهم ونسوانهم.

وفي مقابل هذه الآراء التي تشوه صورة الإسلام والمسلمين نجد علماء أجلاء رفضوا وبشكل قاطع عقيدة التكفير والتناحر والإحن بين الناس مهما اختلفت ألوانهم وأجسامهم وديانتهم، ومهما اختلفوا معهم في الآراء، لاقتناعهم بحرمة ذلك شرعا، ولما يترتب عنه من نشر الفتنة بين الناس، وتشويه سمعة الإسلام، وما إلى ذلك من الأوصاف القبيحة التي ينتج عنها أحكام فقهية تمتد خطورتها إلى الأشخاص وأعراضهم ودمائهم وأموالهم في الحياة وبعد الممات.

ومن ثم فإن العلماء الأشاعرة قد اتخذوا منهجا وسطا للتعايش مع الآخرين المخالفين في الرأي والدين، وفي هذا المبحث بيان لمظاهر التسامح الديني في الفكر الأشعري.

المطلب الأول: التكفير من اختصاص الشارع

إن التكفير من أخطر القضايا التي ابتليت بها الأمة الإسلامية، ونخرت كيانها، ولا تزال تعاني من ويلاته إلى الآن، وهذه القضية من المسائل التي حسم فيها أهل السنة والجماعة، الذين عظم عليهم تكفير أحد المسلمين بذنب، قال أبو الحسن الأشعري: "أشهد على أَنِّي لَا أكفر أحدا من أهل هَذِهِ الْقبْلَة لِأَن الْكل يشيرون إِلَى معبود وَاحِد وَإِنَّمَا هَذَا كُله اخْتِلَاف الْعبارَات"[49].

وهذا القول من أبي الحسن الأشعري الذي يجسد التسامح الديني في أرقى صوره، ينبغي إظهاره للناس، ونشره بينهم، وترسيخه في الأذهان، حتى يصبح عقيدة متفشية بين العوام والطلاب والعلماء، ويصبح من التقاليد التي تعكس الصورة المشرقة لدين الإسلام، وفي مقابله لا بد من محاربة الآراء الشاذة، والمعتقدات الغريبة عن جوهر الإسلام ويسره وسماحته.

ثم إن هذه الظاهرة التي ابتليت بها الأمة لم تكن بارزة في جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أو من جاء بعدهم من التابعين، لأنهم شهدوا نزول الوحي، وشرفوا بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأزال عنهم هذا ظلمة الشكوك والأوهام، ولأن جيل التابعين قد شهد له الرسول

48 التنوير والدولة المدنية، عصفور جابر، منشورات صفاف لبنان، الطبعة الأولى سنة 2014م، ص 229.

49 تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ)، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة سنة 1404، ص 149.

عليه السلام بالخيرية، وإنما ظهرت هذه البدعة الفرق الكلامية مثل الخوارج والأزارقة الوقفين عند رسوم نصوص الشريعة، وقد كان أصلهم الذي اعتمدوا عليه في التكفير والقتل، هو أن المذنب يزول عنه وصف الإيمان، وبالتالي اسْتُحِلَّ دمه وعرضه وماله، وهي الفكرة التي رفضها مؤسسو الفكر الأشعري، الذين اعتبروا الإيمان لا يزول بسبب الذنب المرتكب.

المطلب الثاني: التحذير من التكفير

إن التكفير من الأمور الخطيرة التي حذرت منها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي لا يجوز لأحد أن يتلفظ بها، أو أن يصف بها أحدا من المسلمين، وقد جاء في ذلك أحاديث كثيرة، منها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[50]؛ وقد اعتبر النبي عليه الصلاة والسلام شتم المسلم وسبابه وانتهاك عرضه ضرب من الفسوق، الذي يعني الخروج عن أمر الله تعالى، وعن الاستقامة[51]، أما قتاله فقد اعتبره عليه الصلاة والسلام كفرا، وقد حمل العلماء الكفر على المستحل لذلك، من شدة حرصهم على عدم تكفير المسلم بذنب، قال ابن حجر: "أقوى ما قيل في ذلك أنه أطلق عليه مبالغة في التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه أو أنه على سبيل التشبيه لأن ذلك فعل الكافر"[52].

وعن عبد الله بن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع: «ويحكم -أو قال: ويلكم- لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»[53]، وفي هـ\١ نهي صريح من النبي عليه الصلاة والسلام عن التكفير، لما ينتج عن ذلك من استحلال القتال ونشر الفتن والإحن بين الناس، وهي دعوى صريحة عن الكفر والتكفير، ودعوى للتسامح والتعايش مع الآخرين، وغض الطرف عن الأخطاء، وقد حكى النووي في شرح هذا الحديث سبعة أقوال عن العلماء، "**أحدها**: أن ذلك كفر في حق المستحل بغير حق، **والثاني**: المراد كفر النعمة وحق الإسلام، **والثالث**: أنه يقرب من الكفر ويؤدي إليه، **والرابع**: أنه فعل كفعل الكفار، **والخامس**: المراد حقيقة الكفر؛ ومعناه لا تكفروا بل دوموا مسلمين، **والسادس**: حكاه الخطابي وغيره أن المراد بالكفار المتكفرون بالسلاح؛ يقال تكفر الرجل بسلاحه إذا لبسه، قال الأزهري في كتابه تهذيب اللغة: يقال للابس السلاح كافر **والسابع** قاله الخطابي: معناه لا يكفر بعضكم بعضا فتستحلوا قتال بعضكم بعضا".

وعن عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»[54].

وقد جاء هذا الحديث ليقرر مبدأ من المبادئ العقدية المهمة، وهو عدم وصف أحد من المسلمين بالتكفير، وهو من الأمور التي قررها وأكدها أهل السنة والجماعة قاطبة، ثم إن وصف المسلم بالكفر، فضلا عن كونه لا يجوز في الشرع، فإن عاقبة هذا الوصف تعود على المكفر، وهذا العود إنما هو بحسب نية المكفر، فإن كان قد استحل الكفر، فإنه يعود عليه حقيقة، وإن المقصود به التنقيص، رجع تنقيصه ومعصيته

---

[50] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن.

[51] ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان، الطبعة الثانية بدون سنة، ج 3، ص 116. أساس البلاغة، الزمخشري جار الله، ج 2، ص

[52] فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، 1379رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ج 13، ص 27.

[53] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض.

[54] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر.

عليه، قال القاضي عياض: "رجعت عليه نقيصته لأخيه كما قال، إذا لم يكن لذلك أهلاً بكذبه عليه. وقيل: إذا قاله لمؤمنٍ صحيحِ الإيمان مثله ورماه بالكفر فقد كفَّر نفسه لأنه مثله وعلى دينه"[55].

ومن هنا فإن تكفير أحد من المسلمين، أو وصفه بالكفر أمر غير جائز في الشريعة الإسلامية، ولا عند أحد من أهل السنة والجماعة، لتضافر النصوص الشرعية التي تحرم ذلك.

المطلب الثالث: موقف أهل السنة والجماعة من التكفير

لقد جسد أهل السنة والجماعة روح الإسلام ومقاصده وأحكامه في أقوالهم وسيرهم، وترجموه ترجمة عميقة، ومثلوه تمثيلا قويما، باعتباره دينا عالميا وخاتما، يتسم بالخير والتسامح واليسر ورفع الحرج، وجلب المصالح ودرء المفاسد، ورحمة تتسع لكل الاجتهادات التي يقصد من خلالها تكريم الإنسان وتفضيله والرفع من قيمته، والسمو به نحو حياة طيبة، فقد كانوا رضوان الله عليهم ينئون بأنفسهم عن الوقوع في مآزق ومهاوي توقعهم في أعراض إخوانهم، بل إنهم كانوا يتحققون من النعوت والأوصاف قبل إطلاقها، لا سيما تلك الأوصاف التي تخرج من الملة مثل التكفير، وأقوال أئمة الهدى في هذا الباب كثيرة، تعتبر قاعدة جليلة لدى الأشاعرة، تعكس روح الشريعة الإسلامية ومقاصدها العظيمة، قال محمد بن الحسن الشيباني: "لا ينبغي لأحد من أهل الإسلام أن يشهد على رجل من أهل الإسلام بذنب أذنبه بكفر، وإن عظم جرمه"[56]، وقال الإمام الغزالي رحمه الله: "والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين للقبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ. والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم"[57].

وزاد الغزالي رحمه الله مؤسسا قاعدة أخرى مستلهمة من روح الشرع الحكيم، فقرر أن "الخطأ في حسن الظن بالمسلم أسلم من الصواب بالطعن فيهم، فلو سكت إنسان مثلاً عن لعن ابليس أو لعن أبي جهل أو أبي لهب أو من شئت من الأشرار طول عمره لم يضره السكوت، ولو هفا هفوة بالطعن في مسلم بما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض للهلاك"[58].

لقد أكدت هذه الأقوال وغيرها أن الشريعة الإسلامية قد قامت على حفظ الدين والنفس...لذلك فإن العلماء قد شددوا على ضرورة التثبت قبل الحكم على الناس ورميهم بالكفر، لأن التكفير يترتب عليه من الأحكام والآثار ما يجعل الخطأ فيه بالغ الخطورة. وقد قرر الإمام الشيباني أن الامتناع عن تكفير من ينتسب إلى الإسلام، أولى من التسرع في إخراجه منه، وإن كان مخطئا أو واقعا في بدعة، ما دام قوله يحتمل وجها من وجوه الإسلام. كما عزز الإمام الغزالي رحمه الله هذا المنهج، فدعا إلى الاحتراز من التكفير ما وجد إلى ذلك سبيلا، وعد الخطأ في تكفير أو لعن ألف كافر أهون من الوقوع في طعن مسلم واحد، ثم زاد رحمه الله ذلك توسعة لهذا الأصل حتى لا نسلم من استباحة دماء المسلمين والوقوع في أعراضهم، ليشمل حسن الظن بالمسلمين، والكف عن الطعن في نياتهم ومعتقداتهم، لأن اللسان إذا أطلق في عقائد الناس وأعراضهم، كان سببا للفرقة والإحن والتشتت.

---

[55] إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ)، تحقيق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى سنة 1419 هـ - 1998 م، ج 1، ص 318.

56 موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ)، تعليق وتحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية، الطبعة الثانية، بدون سنة، ص 325.

57 الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1424 هـ - 2004 م، ص 135.

58 المصدر السابق، ص 131.

وعليه فإن منهج أهل السنة والجماعة يقوم على العدل والإنصاف، والتبين، وحمل الكلام على أحس محمل، وأن التكفير ليس حقا للأفراد بل هو حكم شرعي له ضوابط دقيقة، ولا يجوز التوسع فيه، أو اتخاذه ذريعة لإقصاء المخالف، وهذا المنهج ينسجم مع مقاصد الشريعة في حفظ أنفس المسلمين، ووحدة صفهم، وصيانة دمائهم وأعراضهم، وتحقيق الأمن الفكري والاجتماعي.

ولا تقتصر أهمية هذا المنهج على كونه يمثل نموذجا عقديا تبناه الأشاعرة في التعامل مع المخالفين، بل يمثل حاجة ملحة في الواقع الإسلامي المعاصر، في ظل تزايد خطابات العلو والتطرف، التي اتخذت من تكفير المخالف مدخلا لإثارة الفتن، واستباحة الدماء، وزعزعة الأمن الاجتماعي.

ومن هنا فإن استحضار هذا المنهج القويم القائم على التبين والاحتياط وحمل الكلام على أحسن محمل، وحسن الظن بالآخرين، والتفريق بين الخطأ والكفر، يسهم في تعزيز الأمن الروحي والفكري والاجتماعي، وترسيخ قيم الاعتدال والوسطية، وحماية المجتمعات من مظاهر التعصب والتشتت، وبناء خطاب متوازن يجمع بين الثبات على أصول العقيدة والانفتاح على قيم التعايش والحوار.

خاتمة:

إن قضية التكفير تعد من أخطر القضايا التي ابتليت بها الأمة الإسلامية ونخرت كيانها، والتي يعاد إنتاجها في عصرنا عبر خطابات متطرفة وعبر صور مختلفة، والتصدي لها، والرد عنها بفكر إسلامي عقلاني أشعري الذين عظم عليهم تكفير المسلم بذنب يرتكبه، نستنتج:

أن التسامح في العقيدة ليس مفهوما طارئا على الفكر الإسلامي، وإنما هو أصل أصيل في نصوص الشريعة الإسلامية، وهو مجسد في منهج أهل السنة والجماعة، لا سيما المدرسة الأشعرية، التي جعلت الاحتياط في التكفير، وحسن الظن بالمسلم، وحمل الكلام على أحسن المحامل، قواعد ضابطة لحفظ دما المسلمين وأعراضهم وحفظ وحدة الأمة وتماسكها.

الفكر الأشعري في موقفه من التكفير لم ينطلق من اعتبارات أخلاقية، وإنما أسسه على أصول عقدية ومنهجية راسخة، تقوم على التثبت، والتمييز بين الخطأ والكفر، ومراعاة الضوابط والشروط والموانع، وربط الأمور بمقاصد الشريعة، مما جعله يمثل نموذجا وسطيا.

ظاهرة التكفير كانت ولا تزال أخطر قضية ابتليت بها الأمة الإسلامية، وهي أهم سبب في التنازع والتشتت، ومواجهتها لا تكون إلا بإحياء المنهج العلمي الرصين الذي قرره علماء الأمة الإسلامية؛ القائم على الاعتدال والإنصاف، واحترام الاختلاف المشروع، مع التمسك بثوابت الأمة.

التراث الأشعري يمثل مدخلا مهما لترشيد الخطاب الديني، وتعزيز الفكر الأمني، وترسيخ السلم والأمن الاجتماعي وثقافة التعايش، بما ينسجم مع مقاصد الشريعة في حفظ النفس والدين والعقل، ووحدة الأمة.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع**
- اتجاهات التعددية الدينية والموقف الإسلامي منها رسالة مكملة لدرجة الدكتوراه في مقارنة الأديان، أنيس مالك طه، تحت إشراف محمود سلامة سنة 1421هـ/2000م.
- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت 538هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى سنة 1419هـ/1998م.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1424 هـ - 2004 م.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ)، تحقيق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى سنة 1419 هـ - 1998 م.
- بؤس الدهرانية النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، طه عبد الرحمن، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، الطبعة الثانية سنة 2014.
- تاج العروس، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهدية بدون طبعة وسنة الطبع.
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ)، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة سنة 1404.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى سنة 1403هـ/1983م.
- التنوير والدولة المدنية، عصفور جابر، منشورات صفاف لبنان، الطبعة الأولى سنة 2014م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: 1031هـ)، عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1990م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى سنة 1422 هـ2001م.
- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ت ق 12هـ)، تعريب إلى الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية لبنان بيروت، الطبعة الأولى سنة 1421هـ/2000م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (المتوفى: 256هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى سنة 1422هـ.
- دستور العلماء جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق 12هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م.
- الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي (المتوفى: 275هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون طبعة وسنة الطبع.
- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات، الطبعة الثالثة سنة 1424 هـ - 2003 م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : 748هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة سنة 1405 هـ / 1985 م.
- طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (المتوفى: 379هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، بدون سنة، دار المعارف بدون سنة.
- غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 224هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الدكن، الطبعة الأولى سنة 1384 هـ -1964 م.
- الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان، الطبعة الثانية بدون سنة.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، 1379، بدون طبعة وسنة الطبع.
- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون طبعة وسنة الطبع.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، بدون سنة النشر.
- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية الدار النموذجية، بيروت صيدا، الطبعة الخامسة سنة 1420هـ / 1999م.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون طبعة وسنة الطبع.
- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني بيروت، سنة 1982م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر سنة 1399هـ 1979م.
- مفاتيح الغيب/التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة سنة 1420 هـ.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس للنشر والتوزيع الأردن، الطبعة الثانية سنة 1421هـ/2001م.

- موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، تعريب خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه: أحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت باريس، الطبعة الثانية سنة 2001م.
- موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ)، تعليق وتحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية، الطبعة الثانية، بدون سنة.
- نشأة الدين "النظريات التطورية والمؤلهة"، علي سامي النشار، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، سنة 1368هـ 1949م.
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، عدد من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد، دار الوسيلة للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الرابعة بدون سنة.
- نقد التسامح الليبرالي، مفتي محمد بن أحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر والتوزيع، السعودية سنة 2010.